القمح والنيل

حلمي صابر - شعبان ١٤٤٣هـ



اخترق ماؤك جسدي،

عروقي عروقا نيلية،

طين عروقي من ضفة النيل الشرقية والغربية،

دهورا ودهورا تجري،

حتى صارت شراييني طينية.

سألني النيلُ:

من أنتَ ؟ هل أنت من الجهة الاعتراضية ؟

لا زلتَ يا نيلُ في هذه الدوامة الأبدية،

أنت ماءٌ وأنا طينٌ،

دعكَ من اللعبة السياسية.

سألني النيلُ سؤالاً آخرَ؟

تفضلْ يا نيل :

هل أنت معارض للعسكرية أو للجيشية؟

لست معارضًا ولا متفقًا يا نيلُ،

لكنكَ أطلقتَ النار عليَّ.

لحظة يا نيل، لستُ ممن جاء في ذهنك؛

ذهنك يصنف بتلقائية.

أنا فقير لا أجد رغيفا على الطبلية. (طاولة قصيرة للطعام)

النيل: لنتجاوز هذا. ما سؤالك يا ناطق العربية ؟

لِمَ جلبتَ القمحَ من الأرض الروسية ؟ هل كان مسألةً زراعية أو اتفاقا في صفقةٍ عسكرية ؟

النيل: لا تسل هذا السؤال، اسأل من يدير العجلة المائية.

سألته مستنكراً: سيظل السؤال حائرا: لماذا استوردنا القمح وأرضنا زراعية ؟!

هل هذا يحتاج إلى تبرير ! أو إلى تغطية إعلامية !

يا مبنى الزراعة

هل عندكم جواب للمسألة القمحية ؟

أما رأيت الأهرامات !

كيف نقلَوا الحجرَ ؟

كيف رفعوه ؟ كيف صنعوا منه مكعبات أرضية،

هل كان عندهم ما عندك من تقنية ؟!

أنبوب ماءٍ إلى أرض صحراوية

يسقيها النيل

هذا ملخص ما تحتاج إليه المسألة القمحية

سكتَ النيلُ مطرقا !

ثم ابتسمَ مستهزئا،

ألتفتَ إلي

أنزلَ عينيه

قلتُ له:

خذْ شراييني

اصِنعْ من عروقي أنبوبا، ماصورة، نفقا، تجري فيه المياه النيلية

عارٌ أن استورد القمح

والنيل يجري فيَّ

روسيٌ قتل ابنتي

قتل أختي

قتل أمي

اغتصب جدتي

خنق أبي

أحرق جدي

هدَّ بيتي

أحرق الشهباء الأبية

أغرق زورقي

دمَّر سورية

أرضَ الخلافة الأموية

وبجانبها العراق

كانت اللعبة أمريكية

على أرضِ الخلافة العباسية

من لعبةٍ إلى لعبة

حتى غدتْ لعبةً عربيةً تلعبُ بالعربيةِ

رفعَ النيلُ عينيه إليَّ

تكلمَ مع نفسهِ

سألتُه ماذا قلتَ ؟

قال: قتلتني الشيوعية الاشتراكية

التي جعلت الغني فقيرا

وأطغتني الرأسمالية

جعلت الغني أغنى، والفقير أفقر

واللعبة تسمى: ديمقراطية

قال النيل: أجدبَ زرعي بمصلحةٍ شخصية،

رشوةٍ،

منصبٍ،

قتلٍ،

حبسٍ،

قهرٍ،

ظلمٍ،

سرقةٍ،

وتعذيبٌ قبل الفجرية

ولا زلتُ أخاف من دعاءِ أمٍ مظلومةٍ في ليلة قدرية

واصلَ النيلُ حديثَهُ من ضفةِ الجهةِ الغربية:

بالسلاح الروسي، قتلتُ شعبي

وبالمال الغربي، أفقرتُ شعبي

وبالمال العربي، زنيتُ بفقري

والدين العام وضعته في جيبي

وأجهلتُ عِلْمي

وطردتُ كل عالم ذري

وأحرقتُ كل عنصر كيمي

وقتلتُ كل بقرة حبلى لمنع الحلبي

وهدمتُ المدرسة، لأحمِّقَ شعبي

وسجنتُ كل عالم شرعي

وتبرعتُ بأعضاء كل طبيب عارضني

أبحتُ الجنس لكل مغتصبي

خدرتُ العقل بكل مخدري

وعذبتُ من قال لا، وقربتُ من قال نعمي

صيرتُ الإعلام ليلحسَ قدمي

هدمتُ البيتَ، وبنيتُ الجِسَّر،

لكنَّ، لا أحدًا عليها يجري أو يمشي.

كل شيء بالعكسي !.

فغارَ القمحُ في أرضي

سألته متعجبا: ولا زلتَ يا نيل مع هذا تجري ؟!

ما بالكِ يا قمحةً حيرى ؟

نظرت إليَّ وفي عينيها دمعٌ:

قلتُ لها يا دمعةً: متى يسكنُ دمعي وقهري ؟!

خذني إلى مصرَ خذني

ليتك يا طينُ مصرَ تحضني

وليتني يا مصري، حبةَ قمح أشبعك وتأ كلني

أنا قمحةٌ مصرية

هربتُ إلى لا ادري

نسيتُ اسمي

كنتُ خديجةَ

صاروا ينادونني: تنيسي

خذني وأنبتني

قليلا من الماء يكفيني

سبعة عجاف، وسبعة لتخزين

ثم كانت سحب يوسف - عليه السلام - بمائها تعتصري

الماءُ من الأرض ينزلُ

والسحابةُ تنبعُ

النيلُ سحابةٌ تمشي

رجعتُ إلى النيل والحيرةُ تُغلّفني

شاهدتُ في الطريقِ امرأةً عربية

تبيعُ الماءَ بقواريرَ من الفراتِ ودجلةَ العراقية

سألتها: من أنتِ

أنا عجوز ظمأى، والنهر تحتي،

ثم قالت بعفوية:

طاولات عربية ملأى

طاولاتهم تأكلها الزبالاتُ وترمي

ليس على سفرتي عيشٌ يرغفني

ولدٌ يلبسُ يوم العيد بدلةً بِزرٍ ذهبي

لم أحسده، ولن أحسده

لكنَّ ولدي، بدلته:

من أكياس طحين فارغة، أخيطها بيدي

زِرُّها خيط ملتفتي

هذه مشكلتي

لست يا سيدي مُعارضة

ولا سياسية، ولا اقتصادية

ولا يعنيني كله

يعنيني أن أجدَ رغيفا على طبليتي

يا نيلُ

حبستَ ابنتي

أمَ حفيدي

في سجنِ المزة

وشقيقتها في الصيدناية

رفضَ النيلُ التهمة:

تلك سجون سورية

وما فرقُها عن السجون المصرية

وما فرقها عن السجون العربية

كلها سجون

للمظلومِ غُرفاً مبنية

ما عاد أحدٌ يزرع

صاروا يزرعونَ في الحقول الأمريكية

هل منْعُ القمح الروسي لعبةٌ أمريكية !

ذئبٌ أمريكي

ناب يعض، ونابه الآخر يحنو على مزرعة أمريكية

ناب أجدب مزرعتي

أربعةُ دولارات زرْعُ القمح كلفني

عرضه الأمريكي عليّ بدولار، أتشتري ؟

أراد قتل مزرعتي

وأغرق السوق بالقمح، فسقط السعرُ

فأغرقني

ما عادت الحرب رصاصة

صارت الحرب على جذور مزرعتي

جريمة تترى وتترى

من يحفظ العقول البشرية ؟!

عبث في الأموال،

وحبس للإنسان،

وإتلاف للأرض والبنيان

القمحُ يجَلَبُ من الأراضي الروسية

والرصاصةُ تصنعُ لترمى عليَّ

أيا نيل، بيعُ الكوسى والباذنجان

تدريبٌ على الجندية ؟!.

قال النيل:

اسكتْ، وإلا سجنتكَ في أكبرِ سجنٍ بنته البشرية

سألتُ النيل:

والقمحُ ؟

أجاب:

يكفيك الفول والطعمية

سألت دجلة والغوطة والمياة السودانية

أين ذكاؤكم ؟ أين عقولكم؟ أين ماؤكم ؟!

نظروا إليَّ بغضبٍ !

عقلي يزرع قمحا

ويصنع رصاصةً، ويهندس آلةً

ليس هنا

في الغربِ والشرقِ، بختمِ الصناعة الغربية.

ألغينا جوازاتهم والعربية

إذا رجعوا، ليس عندنا لهم إلا السجون العلوية

والغرف السفلية مكتظةٌ

غرفة العشرين، نضعُ فيها مئة.

لا نعدُّهم بشرا، بل فصيلة جديدة حيوانية

فهل ستعودُ العقول العربية ؟!.

فكيف لا تجف المياه النيلية والسودانية والسورية والبقية العربية

نحن في القائمة من أواخر الدول الاستبدادية.

هذا ماءٌ لا يُنبِت

ومال يُغرِق بيوتنا الطينية

عليها يطفو

معذرة، إنه حمقٌ أنْ تسألَ عن حبةِ قمحٍ في بلدٍ عربية !

فعرفتُ أنَّ الأرضَ مجدبةٌ

من اعتاد الحربَ

سيجعل البلادَ ميادين حربية

لكن العيبَ

سلاحه ليس نحو عدوٍ

بل نحوي

كما فعلَ في ليبيا

مبنى الداخلية

ركضَ النيل نحوي

خفتُ، أذعرني ! كتمَ صوتي ثمَّ أغرقني

وضع الطين في فمي

وجرَّني إلى العباسية (موضع مستشفى المجانين)

قال لي: أنت مجنون !

ومكانك في مبنى الأمراض العقلية

أمجنونٌ أنا ؟!

زرعتُ قمحةً في فمي

ومددتُها بدم شراييني

فنبتتْ

حفروا فمي

وأخرجوا لساني

وقطعوا صبعي

هذا طلب من الحكومة؛

للحفاظ على سعرِ القمحةِ الأمريكية

فسدتْ الأرضُ

ليتهم بالإسلام أصحلوا الأرض والبشرية

وهل يفلحُ من حاربَ دينَ ربِّ البشرية

شنقوني

أعدموني

الإسلام إرهاب

ونحن نحارب الإرهابية !

سألهم المجنون: هذا طلبُ من ؟

كان جوابهم: طلب الحكومة المحلية

والصحيفة ، والتلفاز ، والأخبار

والمستشرقة الهولندية

ما عادَ للوجهِ إسلامٌ ولا عربية

بل غربية روسية

أو غربية صينية أو صينية أمريكية

أو أوروبية غربية لا شرقية

أو شرقية لا غربية

أو أمما متحدة على الأراضي الإسلامية العربية

كلهم يزرعون

ليس في أرضنا حبةُ قمحٍ عربية

أخذوا مني الفول والطعمية

وسحبوني من الجنون

إلى سجنٍ وسجون

عفوا، طرْقٌ على الباب

هربتُ من بيتي

قفزتُ من النافذة الخلفية

أردتَ أن تحبسني

ما أفعلُ صدري يغلي

فِفعلكَ يحيرنّي

فأصبُ حرارتي عليك ماء باردا لتشربني

أتظنني سأحرقكَ

لا ، لا ليس هذا مِن فعلي

احترمكَ

رباني أبي وأدبني ، وأمي بلطفها لطفتني

اطلقني، اسمعني

سألتكَ يا نيل، لا تحبسني

هل تسمعني ؟

ليتك زرعتَ حبةَ قمحٍ لابني

وألبستَ حفيدَ العجوز بدلةً بني

وحررتَ المحبوسَ من ظلمِ السجنِ

فالعيدُ قادمٌ

فاجعلْ وجهَ الصغيرِ المحرومِ مبتسما ومبتسمي

ساقكَ اللهُ إلى كل خير ويُمنِ

انتهى